الفصل الخامس

الجيش الوطني العنصري

لقد رأينا أن نفرد هذه الجزئية البسيطة في عجالة ، لتناول وضعية الجيش بعد إنهيار الجيش العثماني بشكله التقليدي ، وقبل أن ننتقل إلي مرحلة الجيوش الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية ، وذلك لأن هذه الفترة البسيطة تاريخياً كانت بمثابة فترة انتقالية من انهيار الجيش العثماني بشكله التقليدي إلي الجيوش الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية ، وقد برز في هذه الفترة جيشان إسلاميان كان لهما أهمية ملموسة في صناعة الأحداث في العالم الإسلامي ، وبينه وبين القوى الأوروبية التي بدأت تتدخل بشكل سافر في شئونه ، هما الجيش العثماني بعد الإصلاح ، والجيش المصري في عهد محمد علي ، وسوف نتابع تطور الجيشين ودورهما من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : الجيش العثماني بعد الإصلاح .

المبحث الثاني : الجيش المصري في عهد محمد علي .

المبحث الأول

الجيش العثماني بعد الإصلاح

لقد بدأت عملية إصلاح واسعة في الإمبراطورية العثمانية تطلبت جهوداً جبارة بدأت مع عهد سليم الثالث ١٧٨٩ – ١٨٠٧ ومحمود الثاني ١٨٠٨ – ١٨٣٩ وعبد المجيد ١٨٣٩ – ١٨٦١ وعبد العزيز ١٨٦١ – ١٨٧٦ ، ولعل ذروة تلك الإصلاحات تمت في عهد عبد المجيد وقد أطلق عليها فترة التنظيمات ، وتطرق ذلك الإصلاح إلي كل شيء تقريباً ، وكانت البداية من الجيش ، حيث تم التخلص من الإنكشارية التي كانت عقبة في وجه الإصلاح ، ولم يكن التخلص بأية وسيلة من وسائل الإبعاد ولكنه كان بالإعدام !! في عام ١٨٢٩ ، وأعقب ذلك إعادة تنظيم الجيش على أيدي خبراء أوربيين ، حيث صدر قانون جديد للتجنيد في عام ١٨٤٣ وترتيباً على ذلك تم تشكيل جيش عصري لعله كان أقوى الجيوش المعروفة في ذلك الوقت بعد الجيش البروسي ، وكان تعداد ذلك الجيش ٣٠٠،٠٠٠ جندياً عاملاً ، وكانت مدة الخدمة الإلزامية في الجيش خمس سنوات ، بالإضافة إلي ذلك كان هناك ١٥٠،٠٠٠ جندياً احتياطياً ، ومدة الخدمة الاحتياطية سبعة أعوام مع تدريب لمدة شهر في كل سنة .

وفي حقيقة الأمر لم يكن لذلك الجيش الذي سرعان ما تهاوى أو على الأقل ذهب بريق تقدمه وتطوره مع اندثار عصر التنظيمات الذي مر كلمح البرق وانتهى بتركيا إلي أزمة اقتصادية مزقته ، وكان سبب ذلك أن التنظيمات لم تتعرض على الإطلاق للوضع الاقتصادي . لم يكن لذلك الجيش أي أثر فعّال يمكن أن يذكر للدولة الإسلامية لا على المستوى الداخلي أو على المستوى الإقليمي أو على المستوى الخارجي .

فعلى المستوى الداخلي ساند الجيش على استحياء حركة الإصلاح ، ثم في مفارقة عجيبة أرتد وساند استبداد السلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتلى العرش عام ١٨٧٦ ، ولعب بورقة الإسلام ضد الأحرار الذين ينادون بالإصلاحات . وضد القوميين . وأوقف تطبيق الدستور، وطارد مدحت باشا رائد الإصلاح الذي نفاه ثم اغتاله عام ١٨٨٣ . وعليه فقد أغلقت دكتاتورية عبد الحميد الثاني فترة التنظيمات عام ١٨٧٩ ، وكان الجيش في ظلال الأحداث خيالاً لا جسد له .

وعلى المستوى الإقليمي لم يكن للجيش نشاط ملحوظ ، إذ أن القوميات التي انضوت تحت لواء الإسلام ، ومنها القومية التركية ذاتها والقومية العربية والفارسية والبربرية وغيرها ، كانت في مرحلة التبلور والتشكل ، وتستعد لأن تحدد لنفسها حّيزات مكانية جغرافية يتسنى لها ممارسة خصوصياتها الحضارية والثقافية فوق ترابها .

كذلك نرى الجيش العثماني لم يحرك ساكناً إزاء سقوط أجزاء الدولة الإسلامية كالفراشات الواحدة تلو الأخرى في أتون السيطرة الأوربية ، فكانت البداية من الجزائر ثم تونس ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق ، وتم تقسيم أشلاء الرجل المريض بين ضباع أوربا الجائعة .

وعلى المستوى العالمي والعلاقات التركية الأوربية ، فبالإضافة إلي ما قدمنا أعلاه ، لم تكن ثمة مواجهة على المستويين الاستراتيجي أو العسكري بين الأتراك وأوربا ، فقد أدت الأزمة الاقتصادية المزمنة — التي سبق ونوهنا عنها — والتي لم تمسها الإصلاحات إلي تسليم اقتصاديات تركيا المفلسة إلي أوربا ، وتم تأسيس صندوق الدين العام العثماني عام ١٨٨١ بإدارة فرنسية إنجليزية . ثم مُنحت إنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول الأوربية امتيازات مطلقة في المجالات التعدينية وغيرها ، وظلت التدخلات الغربية التجارية تعبث في اقتصاديات الإمبراطورية حتى الحرب العالمية الأولى .

المبحث الثاني

الجيش المصري في عهد محمد علي

تقاسم الجيش المصري الذي أنشأه محمد علي مع الجيش العثماني الأحداث على مستوى العالم الإسلامي من حيث الترتيب والصناعة ، ومن ثم كان دور الجيش المصري الذي بدأ في البروز بفعالية منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر جديراً بالمتابعة والدراسة .

لقد أوكل محمد علي مثله في ذلك مثل العثمانيين مهمة تنظيم الجيش المصري وإعادة تشكيله إلي الفرنسيين دى سيف [سليمان باشا] وسيزرى ، وكان الجيش المصري يتكون من ١٣٠،٠٠٠ جندياً نظامياً و ٤١،٠٠٠ بحاراً عاملاً في الترسانات البحرية ، أما قطع الأسطول المصري فكانت تتكون من ١١ بارجة و ٣ بواخر بخارية و ١٨ سفينة مختلفة الحجم . وقد تم إعداد عدة مصانع متطورة لإمداد هذا الجيش بالسلاح .

أراد محمد علي من وراء هذا الجيش الكبير والمتطور العظمة والنفوذ ، وقد ساعده على ذلك المساعدات التي تلقاها من فرنسا ، والمجهودات التي قام بها أبناؤه طوسون وإسماعيل وإبراهيم ، وتم تحريك هذا الجيش الفتى في اتجاهات عدة استهدفت جميعها خدمة ذلك النفوذ وبناء تلك العظمة ، فلم يحرز هذا الجيش أية إنجازات لمصلحة الإسلام دعوةً أو حضارةً ، وتوضيح ذلك فيما يلي :

أولاً : كان التحرك الأول بموافقة الباب العالي في فترة الوفاق المصري التركي فيما بين عامي ١٨١١ إلي ١٨١٨ للتدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ضد السعوديين الوهابيين ، ثم تكرر ذلك التدخل عدة مرات في ما بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٨ ليصل الجيش المصري حتى اليمن .

ثانياً : كان التحرك الثاني في اتجاه الجنوب ناحية أعالي النيل والبحر الأحمر واحتلال أرض السودان وتأسيس عاصمة جديدة في الخرطوم في عام ١٨٣٢ والوصول إلي أرتيريا .

ثالثاً : وكان التحرك الثالث في البحر المتوسط فقد أخمدت مصر عن طريق جيشها المتصاعد القوة ثورة اليونان لمصلحة الباب العالي وكوفئت على ذلك بجزيرة كريت .

رابعاً : حلمت مصر بإخضاع كل من طرابلس الغرب وتونس والجزائر بالتحالف مع فرنسا . ولكن القطيعة التركية المصرية بددت ذلك الحلم . عندما فكرت مصر في السيطرة على سوريا .

خامساً : تصاعدت حدة القطيعة المصرية التركية إلي حد الحرب . ودخل إبراهيم بن محمد على الحرب ضد ، تركيا ونجح في منطقة سان جان داكر في ١٨٣٢ ، وعقد صلح كوتاهية بين الدولتين بأن تنازلت تركيا لمصر عن كل سوريا ومقاطعة أطنة .

سادساً : وبدأ الأوربيون يتحركون بقلق ضد قوة مصر المتصاعدة وبدأ التحرك من روسيا ، حيث تم توقيع تحالف مشترك روسي تركي في معاهدة هنكار أسكله سي في يوليو ١٨٣٣ ، حققت روسيا بموجبه بعض الامتيازات في المضايق ، وامتعضت كل من فرنسا وإنجلترا .

سابعاً : ثارت أزمة ثانية في سماء العلاقات المصرية التركية ، تطورت سريعاً إلي حرب بين تركيا وجيش إبراهيم بن محمد على ، وهُزم الأتراك في شمال سوريا في معركة نصيبين في عام ١٨٣٩ ، وكان هذا النصر المصري بداية أفول نجم مصر وسياسة محمد علي ومعهما الجيش المصري !! .

ثامناً : ولكن كيف تحول النصر إلي بداية أفول ؟ كان ذلك عندما استشعرت كل من فرنسا وبريطانيا خطورة مصر وجيشها وسياسة محمد علي على سياستهما في الشرق عموماً

، وتم التخطيط لمعاهدة لندن المشئومة في عام ١٨٤٠ ، ونتائجها المأساوية ، إذ بموجب هذه المعاهدة اعترف محمد علي بالسيادة المطلقة للسلطان العثماني ، واحتفظ بمصر بصفة وراثية والسودان طوال حياته ، وتحطم الحلم الكبير في العظمة والنفوذ ، ولم يفد الإسلام أو حضارته من ذلك شيئاً .